تقديم
PREFACE

ورد في كتاب توماس كون Thomas Kuhn *بنية الثورات العلمية* *The Structure of Scientific Revolutions* أن المنظومات النظرية في العالم تتغير بتراكم النقائض، ونعني بها الملحوظات والمعلومات التي تخرج عن النظريات والتعميمات القائمة أو التي يستعصي تفسيرها على المنظومات الحاضرة. لكن نظرة كون تشدد على المكتشفات في "العالم الحقيقي" التي تدفع باتجاه إعادة التفكير في أسلوب المعالجة، وهذا ما ينم عن الفلسفة اليقينية positivism في افتراضاته. ولا يمكن اتخاذ مثل هذا الموقف إلا إذا كان المرء يؤمن "بمثل أفلاطوني" أو "بالحقيقة الواقعية".

لكن الكتاب الحالي ينطلق من مقدمة مختلفة إلى حد ما. ففي العلوم الثقافية والاجتماعية بصفة خاصة تبرز مكتشفات غريبة من الملاحِظ ومن الملاحَظ. وتفرض هذه النظرة النسبية أن المعرفة العلمية تبنى بشكل اجتماعي. فلو لم تكن المعرفة منتجا غير مجسد متماثل في الشكل مع العالم بل نتاج التعريف الجماعي، أي أنه يمثل "إجماعاً بشرياً عارضاً حول العالم"، لما كانت المعلومات الجديدة وحدها التي تستطيع إنتاج ثورات جدولية، بل وجهات النظر الجديدة أيضا التي نلحظ من خلالها وجهات النظر الحالية.

لقد أدت تحولات حديثة متعددة من الأعمال التاريخية الاجتماعية إلى إعادة صياغة المعرفة السابقة؛ بعضها نشأ من حقائق جديدة، لكن معظمها تحقق بسبب التغيرات في

شخصيات العارفين، أو أنها اشتقت من التغييرات في كيفية المعرفة. ودعوني أضرب لكم بعض الأمثلة. أولاً، إن الأعمال التي تجمع بين علوم شتى، مثل الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع والتاريخ غير مسبوقة بالتأكيد، لكنها دائماً منتجة. فلكل علم مجال تقليدي خاص به. وهذا يعني أن الملاحظين من مختلف العلوم ينظرون إلى العالم "الحقيقي" ذاته، لكن بطرائق مختلفة إلى حد ما. فالآراء الأصلية غالباً ما تصبح ممكنة حين يعبر المفكرون الحدود الفاصلة بين علم وآخر. ويخطر ببالنا من ضمن الأشياء الأخرى التجاوزات التي ارتكبها عالم الأنثروبولوجيا إريك ولف Eric Wolf وعلماء الاجتماع مثل إيمانويل ولرشتاين وكريستوفر دن في التاريخ، وتجاوزات المؤرخين مثل فرناند برودل وفيليب كيرتين في علم الاقتصاد، أو الدمج بين العلوم الواضح للعيان في أعمال تشارلز تلي وإيريك هوبزبوم. صحيح أن التجاوزات خطيرة، لكن ما فاز باللذة إلا الجسور!

إن في خلفيتي الثقافية العديد من العلوم لأنني جمعت منها كل ما وجدته ممتعاً. فقد بدأت عملي في التخطيط السكاني والاجتماعي المدني في أمريكا، ثم درست التخطيط الاقتصادي والتنموي، قبل أن أنتقل إلى عمل وصف فيما بعد بأنه جغرافي. بعد ذلك اتجهت نحو ثقافة الشرق الأوسط وتاريخه فعشت في مصر وعملت فيها، ثم توسعت اهتماماتي بمرور الزمن فشملت أجزاء أخرى من العالم الثالث. كانت كل نقلة جغرافية أو علمية توسع آفاقي المعرفية، لكن اهتمامي انحصر في علم الاجتماع الأمريكي بمفهومه العريض الذي لم تتوسع حدوده الضيقة إلا مؤخرا لتصبح أقرب إلى التاريخ والمنافسة.

وبرزت طريقة ثانية جديدة من المراجعات التي قام بها مفكرون من خارج العالم العربي في التاريخ وعلم الاجتماع. وليس ثمة جزء مما يسمى "العالم الثالث" لم تتعرض فيه حكمة الفكر العرقي الغربي المكتسبة إلى تساؤلات "الأتباع" (كما يسمون في التاريخ الهندي) الذين لا يجدون في تواريخهم جمود التقاليد والتخلف الذي سلم مفكرو الغرب بوجوده دون دليل، بل يجدون دينامكية التغيير والتخلف الذي نشأ عن

الخنوع. فما أصغر التحدي الذي يمثله عبور ميادين القتال الممتدة بين الحكمة المكتسبة وتحدي الأتباع، ومع ذلك فإن بعض الحقيقة الجديدة قد يبرز من منظور يشمل تفسيرات الضحايا والفائزين. ولقد حاولت في هذا الكتاب أن آخذ كليهما بعين الاعتبار بهدف تقديم صورة متوازنة.

وربما كانت هناك طريقة ثالثة لتغير المعرفة، ألا وهي تغير المسافة التي تفصل المراقب عن "الحقائق"، وبالتالي تغير مقياس ما يندرج ضمن مجال الرؤية. فالمؤرخون لم يجازفوا بالتطلع نحو العالم إلا فيما ندر. ويعد آرنولد توينبي Arnold Toynbee ووليم مكنيل William McNeil من القلائل الذين صمدت سمعتهم أمام هجمات المفكرين المختصين في حدود الزمان والمكان الضيقة. فالتنظيم الاجتماعي عند المؤرخين ظاهرة تستحق الإعجاب. ففي صرح المؤرخين الذي شيده الزمان عموديا والمكان أفقيا ثم منحه التركيز البؤري بعدا ثالثا ليس هناك سوى قلة من المختصين يتمركزون عند كل تقاطع من آلاف التقاطعات الفريدة، حيث يحفرون خنادق طويلة وعميقة. أما المهارات التي ينبغي عليهم استخدامها في القيام بمهماتهم والتي لا تنحصر في المهارات اللغوية بل تتعداها إلى المهارات السياقية المتراكمة، فيستغرق تطويرها العمر كله. فأعمالهم هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه أعمال سائر الناس من ذوي الاهتمامات المتعددة. لكن تحقيق هذا التركيز غالبا ما يكون على حساب الرؤية المحيطية.

هذا الكتاب، على النقيض من الكتب الأخرى، يعاني من مشكلة معاكسة. لكنني آمل أن تستطيع الآراء التي كونتها من خلال النظر إلى العلاقات بين الكيانات الجغرافية التي تعالجها مجموعات مستقلة من المختصين أن تعطي ما يكفي للتعويض عن الغلو الكامن في تبني نظرة مغرقة في الشمول. وفي أثناء كتابة هذا الكتاب، كثيرا ما شعرت كأنني لاعب سيرك أخرق يتأرجح في مشيته على الحبل المشدود، وبأنني أترنح عبر فراغات العالم. أما شبكة السلامة الوحيدة التي أعتمد عليها لتحميني عند

السقوط فهي سعة صدر كثير من أفضل المتخصصين وكرمهم ممن عثرت عليهم في مواقعهم من حقب التاريخ.

وتتغير آراء المفكر حين تتراكم في عقله معلومات متفرقة لا يمكن التوفيق فيما بينها. فالدراسة الحالية نشأت إلى حد ما، وقبل أن أتنبه إلى الأمر، من الضيق الذي اعتراني بسبب التناقض بين الحكمة "المكتسبة" وبعض المعلومات المتناقضة التي تراكمت بمحض الصدفة في البداية على الأقل.

لقد أقنعني عملي في القاهرة بأن الفكرة الأوروبية عن عصور الظلام قد أسيء فهمها. فإذا كان شعاع الحضارة قد انطفأ في أوروبا، فإنه ظل بالتأكيد يتلألأ في الشرق الأوسط. فمن زيارة معظم المدن الكبرى الأخرى في تلك المنطقة من العالم، ودراستها تأكدت أن القاهرة لم تكن سوى قمة واحدة من نظام بالغ التطور من الحضارة المدنية. وهذا ما حدا بي إلى رفض كتاب هنري بيرين Henri Pirenne الشهير عن نهضة *المدن الأوروبية* في العصور الوسطى ومقال ماكس ويبر Max Weber عن المدينة الذي يحظى باحترام كبير والذي يميز بين المدينة الغربية في العصور الوسطى (التي يعرفها ويبر بأنها المدينة الحقيقية) والمدينة الشرقية التي يرى أنها مزيفة.

وفي وقت لاحق، وفيما كنت أعد مجموعة من القراءات عن تمدن العالم الثالث Third World Urbanization تتركز بالدرجة الأولى على المشكلات المدنية المعاصرة، بحثت عن نص يبين أن ما نراه اليوم من تخلف محزن للعالم الثالث عن الغرب لم يكن دائماً على هذا النحو. وفي تلك المرحلة، قرأت للمرة الأولى دراسة جيرنيه عن هانغ شو في القرن الثالث عشر، والتي كانت أعظم مدن العالم وأكثرها تقدما.

بعد ذلك، وحين كنت أعيش في باريس، سنحت لي الفرصة لقضاء بعض الوقت في بروج – أعظم مدن العصور الوسطى التي كانت تتمتع بأعلى درجات الحماية والإصلاح، فبدأت أقرأ تاريخها. بعد ذلك، ولما كنت في صحبة جيدة، عشقت البندقية،

وبعدها بفترة قصيرة، وبمحض الصدفة، عثرت على جوهرة جيز Gies الصغيرة "*الحياة في إحدى مدن العصور الوسطى Life in a Medieval City*" وهي تصف مدينة *تروي* Troyes في القرن الثالث عشر. وبالفعل، فقد كانت فكرة هذا الكتاب تتبلور من هذه التجارب من دون قصد قبل أن تنبثق من ثنايا اهتماماتي العشوائية المتفرقة.

وحين أعيتني الصلات بين هذه الأماكن (وغيرها أيضاً) بحثت في أعمال المؤرخين عن كتاب يفسر بصورة منتظمة ما بدأت اكتشف أنه نظام عالمي، لكني لم أعثر على ذلك المصدر رغم أنني بحثت في ألفي بطاقة مرجعية، لكن شعوري بعدم الرضا عن كثير من المؤلفات التي وجدت تزايد رغم كل شيء.

في ذلك الوقت، ظهر أول جزأين من كتاب ولرشتاين Wallerstein وهو بعنوان *نظام العلم الحديث The Modern World System* فقرأتهما بشغف يخالطه ألم يحز في النفس لأن المؤلف كان ينزع إلى التعامل مع نظام العالم الخاضع لأوروبا الذي نشأ في القرن السادس عشر الطويل كما لو أنه ظهر من العدم. وهذا ما عزز الضيق الذي طالما شعرت به لا إزاء أعمال المؤرخ وعالم الاجتماع الألماني ماكس ويبر وحسب، بل حتى إزاء معالجة ماركس لأصول الرأسمالية.

وفي عام ١٩٨٤م، وبعد أن انتابني اليأس من العثور على كتاب يشفي غليلي، بدأت في إعداد جدول للبحث عن دراسة أردت حقا أن أقرأها، لا أن اكتبها، وها هي نتيجة تلك الدراسة مع أن ما فيها من المثالب والأسئلة يفوق الإجابات المطروحة. وآمل أن تولد المزيد من الغرائب فتحفز بذلك العارفين باللغات الضرورية، والمتمرسين في التاريخ، ومن لهم فهم أعمق للمناطق المذكورة لكي يعدلوا الصورة التي حاولت رسمها.

لقد أسهم في هذا العمل كثير من الناس والمؤسسات ممن يضيق المقام عن ذكرهم جميعاً. أما المفكر الذي تبوأت بواكير إسهاماته في الموضوع مكان الصدارة عندي فهو وليم مكنيل William McNeil الذي ما إن قرأ طلبي المبدئي للحصول على

منحة مالية حتى بادر إلى الاتصال بي مع أن المشروع لم يكن سوى فكرة أولية. فرسالته اللطيفة التي ذكر فيها أنه يرى أنني على وشك أن أحقق شيئاً مهماً، أدخلت الثقة في نفسي لسبب وجيه وهو أنني كنت أضعف أحياناً أمام ضخامة المشروع الذي أسعى إلى تحقيقه.

وحين بدأت أبحث في المراجع المنشورة، تبين لي أنه لم يحاول جمع تلك الأجزاء بعضها مع بعض بطريقة منتظمة سوى قلة من المفكرين، مع أن كثيراً منهم لم يدخروا وسعاً في دراسة أجزاء متفرقة من اللغز ذاك. وبعد قراءتي الموسعة في تواريخ مختلف المناطق كل على حدة، بدأت أثمن أعمال بعض المختصين، وقررت أن الطريقة الوحيدة لحماية نفسي من الوقوع في أخطاء جسيمة من حيث الحقائق، وليس بالضرورة من حيث التفسير، هي أن أضع نفسي تحت رحمة من أمضوا حياتهم في التعمق فيما أنا عاجزة عن معرفته إلا بشكل سطحي جداً. فكثير من هؤلاء المختصين الذين راسلتهم أو تحدثت إليهم، أرشدوني بحكمتهم إلى بعض المصادر، ونقدوا مسودات الفصول كل في مجاله. لذلك، وبالإضافة إلى المصادر المدونة في قائمة المراجع، تعلمت الكثير شخصياً من جون بنتون، وروبرت ليرنر، وديفد نيكولاس، ورافي بالات، وبول ويتلي، وإيمانويل ولرشتاين، وديفد لدن، وروبرت هارتول، وكارل بتري، ومن ك. ن. شودهوري. كما كان أندريه جندر فرانك، وروبرت ويكس ممن اقترحوا مصادر إضافية.

وقد تفضل اثنان من زملائي وهما آرثر ستنشكوم من جامعة نورث وسترن، وتشارلز تيلي من المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية — بقراءة المخطوطة الكاملة والتعليق عليها، كما طرحا كثيراً من الأسئلة الصعبة، لكنهما لم يدخرا وسعاً في تشجيعي من خلال اهتمامهما.

وأحب أن أعبر عن امتناني إلى جاي فاينشتاين، وندى شريستا المحررين في *دراسات التنمية الدولية المقارنة Studies in Comparative International Development*

لدعوتي (وكانت دعوة سابقة لأوانها) لكتابة مقال عن النظام العالمي في القرن الثالث عشر لكي ينشر في السلسلة الخاصة التي ستصدر عن المجلة بمناسبة الذكرى العشرين، مما اضطرني إلى تركيز أفكاري. وقد طلبا التعليق عليه من وليام مينل، وأليستر تايلور، وأندريه جندر فرانك، وج .م. بلاوت، وأنتوني دي سوزا الذين حفزني رد فعلهم على الموضوع على المزيد من الإيضاح والتحسين في عملي.

أما طلاب الدراسات العليا الذين التحقوا في خريف عام ١٩٨٧م بدراسة مقرري التدريبي في التغيير ضمن السياق العالمي فكانوا في مقام القارئ العام، وقدموا إلي تصويبات مهمة على صعيد النص. كما تولى مهمة التأكد من المراجع الكثيرة، وهي من المهام الشاقة، أحد طلاب الدراسات العليا ويدعى ريتشارد جانيس. (ولا شك في أن هناك بعض الأخطاء في مراجع المكتبات الأجنبية، والتي تعذر التحقق منها لاحقا في الولايات المتحدة).

كان لابد من بذل الوقت والمال في سبيل إنجاز هذا الكتاب، فقد تكرمت جامعة نورث وسترن، التي كنت أدرس فيها مقرر علم الاجتماع على مدى عشرين عاماً، وبالأخص مركز الشؤون المدنية والبحث في السياسات التابع لها، الذي كنت أحد أعضائه مدة عشر سنوات، بدعم هذه الدراسة من خلال تخفيض عبئي التدريسي على مدى سنوات ثلاث، وهي مدة إنجاز معظم المخطوطة وكتابتها. أما الطباعة والتصحيحات التي لا تنتهي فأنجزتها موظفتان في سكرتارية قسم الدراسات الاجتماعية في جامعة نورث وسترن؛ فجهود ليلى جنجور وباربرا وليمسون، ولو غابت عن القارئ، تبقى محل تقديري العميق.

من الأمور المهمة أيضاً معونات السفر، فجامعة نورث وسترن قدمت مبلغاً صغيراً من المال ساعدني على قضاء صيف في أوروبا وفي جمع المادة والبحث في المكتبات في بلجيكا وفرنسا وإيطاليا. كما أن عملي بصفة استشاري في مكتب الأمم

المتحدة في نيروبي، مع تخفيض مناسب في درجة تذكرة السفر، سهل علي عملي في شرق إفريقيا وأوصلني إلى باكستان وجمهورية الصين الشعبية. كما تمكنت من جمع مادة الجزء الخاص بالشرق الأوسط من هذه الدراسة بفضل دعوة مركز البحوث الاجتماعية التابع للجامعة الأمريكية في بيروت إياي لأكون أستاذة زائرة متميزة في ربيع عام ١٩٨٦م. أما رحلتي إلى الهند قبل ذلك فتمت بفضل منحة زمالة قصيرة الأجل من فولبرايت؛ كما تمكنت من السفر إلى جنوب شرق آسيا لإجراء بعض البحوث بفضل منحة من مركز بحوث العلوم الاجتماعية.

وقد رفعت خبرة زوجي بشؤون السفر الهادئ كثيرا من قدرتي على إنجاز الكثير في رحلاتي إلى أوروبا والصين وجنوب شرق آسيا، وأنا أقدر له، ليس مساعدته وحسب، بل مرافقتي أيضاً. أما المنطقة الوحيدة التي تناولها الكتاب ولم أتمكن من زيارتها للأسف فكانت آسيا الوسطى، لكن على المرء أن يترك شيئاً يطمح لتحقيقه مستقبلاً.

وفي مطبعة جامعة أكسفورد، قدم اثنان إسهامات مهمة. وأحب أن أتقدم بالشكر إلى المحررة فاليري أوبري التي كانت قارئة متحمسة وناقدة متمرسة في آن معا، وأندرو مدريك الذي تمخضت معارفه ومهاراته الفنية عن خرائط توضح معنى المقولة الشهيرة: إن "صورة واحدة تعدل ألف كلمة".

إنني أودّع هذا الكتاب على كره مني، لا لأنه بعيد عن الكمال، بل لأني لم أستمتع بعمل مثله من قبل، لذلك فإن شغفي به سيبقى ما حييت.

المؤلف